معالم الصراع الفكري الجزائري الحديث في الصحافة الإصلاحية

Milestones of modern Algerian intellectual struggle in the reformist press

كمال لعور*

جامعة حسيبة بن بوعلي .الشلف– الجزائر

Laouer.kamel@yahoo.com

تاريخ الارسال: 2020/05/08 تاريخ القبول : 2020/12/27 تاريخ النشر: 2020/12/31

ملخص:

استطاعت الصحف الإصلاحية لدى شيوخ الحركة الإصلاحية وشبابها أن تحقق مناعة لغوية في الجزائر في زمن الغزو الاستعماري والهيمنة الثقافية وتهافت اللغة الفرنسية، فلم تعد هذه اللغة مجرد قواعد جافة بل أضحت لغة تواصل وتفكير وتدبير ودفاع عن المواقف، بل ارتقت إلى لغة مناظرة ومواجهة للخصوم والمتربصين بقيم ومعتقدات المجتمع الجزائري، كما أنها حولت الصحف من مصادر لنقل الأخبار إلى ميادين للترويج للأفكار، والدفاع عن الدين، والتنوير الثقافي، وأضحت الصحافة عنوانا جديدا لتنامي الوعي الوطني، والنزعة الدينية، ومجالا رحبا لطرح القضايا الحساسة التي من شأنها رفع الحس القومي والديني،

الكلمات المفتاحية: الحركة الإصلاحية ؛ اللغة العربية ؛ الصحف الجزائرية ؛ الطرقية؛ الصراع .

Abstract: This research aims to prove the important role played by reform movement journals in the development and maintenance of the Arabic language as a language of communication and writing. With the mechanisms it has adopted for the development of language in the

* المؤلف المراسل

circulation of newspapers, which have not been as full of harassment of colonialism as they have published multiple newspapers, they take care of many issues in politics, religion, literature and thought , Publication did not stop, and media writing did not stop for nearly half a century from the beginning of the twentieth century until the liberation revolution.

key words: The Reform Movement; Arabic language; Algerian newspapers; Sufi orders; conflict.

1. مقدّمة:

كانت الصحافة الإصلاحية شاهدا حيا على مقاومة اللغة العربية للاستعمار الأجنبي ومكافحتها لتسلط اللسان الفرنسي، فقد مكنت هذه الصحف مجتمعة من منع الذوبان في الشخصية الفرنسية وخلق مناعة لغوية راسخة حمت الفكر الجزائري، ومهدت لتشكيل جيل عربي لسانه الضاد، ووجهته العروبة والإسلام، تجلى ذلك منذ المحاولات الإصلاحية الفردية الأولى في مقتبل القرن العشرين، ومع تنامي الحراك الإصلاحي في إطار تنظيمات جمعوية في عشرينيات القرن الماضي، لكن هذه المهمة شهدت نشوب صراع فكري بين اتجاهات فكرية ودينية كانت تنشط في الساحة الثقافية الجزائرية، فكيف أسهم صراع الأفكار في تطوير وتحريك الحياة الثقافية؟ والارتقاء بالصحافة الأدبية والمعرفية، وتثوير اللغة العربية؟ يحاول هذا المقال رصد ظاهرة الصراع الفكري، وتبين آثارها على الصحافة والأدب، مركزين على العقد الثالث من القرن العشرين إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية، مستعينين بالمنهج التاريخي لرصد بعض الأحداث، وبالقراءة الوصفية لتحليل المواقف، والنصوص.

2. محفزات الصراع الفكري في مقتبل النهضة:

لقد سبق ظهور جمعية العلماء المسلمين تباشير نهضوية فاعلة انفلقت هنا وهناك على الساحة الجزائرية مع مجيء ثلة من المصلحين في أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين مثل عبد القادر المجاوي[1] ، الذي كان من الداعين إلى الاهتمام بعلوم اللسان، وعلوم الأديان، وعلوم الأبدان للترقي، ونشر عشرات المقالات التنويرية في صحف:

المغرب، كوكب إفريقيا، بل إن كتابه إرشاد المعلمين قد أقلق المصالح الاستعمارية في الجزائر بعد صدوره، فرأت فيه دعوة لليقظة والاصلاح، "وهذا ما أكده الباحث الأمريكي آلان كريستلو، عندما درس مجموعة من الوثائق العسكرية المحفوظة بمركز أرشيف المستعمرات الفرنسية باكس آن بروفانس"[2]؛ وقد خلفت ميتة الشيخ المجاوي، وهو في كامل صحته ريبة بين تلاميذه ومعارفه أن الاستعمار دس السم له في قهوة، فتم اغتياله إلى جانب ثلة من معاصريه.

ومنهم أبو القاسم الحفناوي[3] الذي وضع كتابا هاما في الترجمة لأعلام الجزائر مما ساهم في ترسيخ الروح الوطنية والنخوة الاسلامية، وعزة الانتماء، جعل عنوانه تعريف الخلف برجال السلف قال في بعضه منتقدا بعض رجال الدين المعاصرين:" بعد فترة طويلة لم يكن فيها من رسوم العلم إلا كبر العمامة، للوليمة والإمامة، ولا من رسوم الرفاهية إلا الطيالسة والقفاطين، المنافسة لاستثمار الماء والطين، وهما في هذا العالم مادة الخلق، وجادة الرزق"[4]، وكان الشيخ أيضا يتأفف من غياب حركة التأليف بالجزائر، ويحزن لتمسك أصحاب المخطوطات بكتبهم دون تمكين المشتغلين بالتأليف منها، فيصف صعوبة تأليف ترجمته المعروفة، ويعزوها إلى المستحوذين على مؤلفات التاريخ في خزائنهم "يفضلون بقاءها ذخيرة للأرضة على إفادة طالبيها بها، واستفادتهم منها، ولا يبالون بما وراء ذلك زاعمين أنهم باستعارتها[5] فقدوا منها كتبا نفيسة المواضيع عزيزة الوجود"[6]

ومنهم أيضا عبد الحليم بن سماية[7]؛ الذي كانت له مكانة سامقة في التربية والتعليم والإصلاح، فصار الطلاب يقبلون عليه، ولقي بعض زعماء الإصلاح مثل الشيخ "محمد عبده" الذي زار بن سماية عندما حلَ بالجزائر سنة 1903، كما وفد عليه الشيخ محمد الخضر حسين عالم الزيتونة بتونس، وكان إلى جانب ثلة من العلماء الجزائريين يمثل كتلة المحافظين المتعاطفة مع فكرة الجامعة الإسلامية التي نادى بها جمال الجين الأفغاني ومحمد عبده.

وفترة هؤلاء كانت إرهاصا للنهضة الأدبية، فقد نشر محمد بن أبي شنب[8] كتاب أبو دلامة وشعره سنة 1922 كما طبع كتاب تحفة الأدب في أشعار العرب1906، وصدرت نصوصٌ أدبيةٌ لبعض الأدباء بصحيفتي المغرب 1903-وكوكب افريقيا 1907 لكن لم تكن المؤلفات العلمية والأدبية كافية لرفد الحركة الأدبية لنسبيتها وقلة انتاجها وعدم ديمومتها، وكذلك لعدم تخلص أدباءها من تركة الصنعة اللفظية الموروثة من عصر العثمانيين، "فلم يستطيعوا الذهاب بعيدا عن هذا الطريق، وظلوا مشدودين بقوةٍ إلى بعض أساليب العصر بأكثر من سبب"[9]؛ والأغرب من ذلك أن الكتب المدرسية في هذه الفترة – الربع الأول من القرن العشرين- لم تر الجزائر منها و لو كتابا واحدا باللغة العربية، مما يدل على ما كان يسود التعليم من فوضى وجمود.

كما كان الشعر هو العملة الأدبية الرائجة، فاكتسح معظم المجال الأدبي، في حين كان المنتوج النثري لا يكاد يضاهي القصائد الوصفية الطويلة و المدحية الأطول التي جادت بها قرائح الشعراء.

لقد كانت الأوضاع السياسية العامة بالجزائر في تلك الحقبة تحجر على الرأي السياسي الجزائري، فعندما يرفض الجزائريون التجنيد والجنسية الفرنسية يعبرون بالهجرة مع أن الهجرة من الناحية الجدلية "تعبير عن الإحساس بالضعف، ومظهر لبساطة الوعي، وعدم الإلمام بأساليب النضال الوطني".[10]

فالنزعة الوطنية إبان الربع الأول من القرن العشرين كانت على جنب كبير من الضعف والبساطة، ويبدو ذلك في انعدام التنظيمات السياسية، ووسائل الإعلام، والقيادة الوطنية التي تحدد أهداف النضال وطرقه، وأنها لم تتجاوز المشاعر الفردية لقلة من المثقفين.

فالشروط الموضوعية لظهور الوعي الوطني تكاملت بعد الحرب العالمية الأولى إلى حد كبير، ويتمثل ذلك في ظهور الزعامة الوطنية، وفي استئناف الصحافة الوطنية لنشاطها، وفي تحديد مطالب وطنية واضحة[11].

وأسهمت الرحلات في تحريك الهمم وشحذ العزائم، فلم نسمع بعالمٍ كبيرٍ إلا وقد كانت له رحلة إلى الحجاز أو المشرق العربي أو تونس لما للرحلة من دور في صقل المعارف وتوسعة الأفق والرؤى، فعاد الإبراهيمي وابن باديس والعقبي من رحلة الحج، وعاد من مصر العربي التبسي، ومن تونس أحمد توفيق المدني، فعودة طلاب العلم من المشرق العربي وتأثيرهم في النهضة الوطنية لم يأت ثماره إلا في العشرينيات، وهو مرتبط بجهود الشيخ ابن باديس التعليمية التي مهدت لبعث الثقافة العربية في الجزائر، وهيأت البيئة الاجتماعية للاستفادة من النشاط الثقافي والديني والإصلاحي منذ ذلك الحين.

فقد صرح البشير الإبراهيمي بقيمة الرحلات الجزائرية قائلا: "حمل أولئك النفر من مصر ومن تونس إلى الجزائر قبسا خافتا من الأدب العربي، ولكنه كان كافيا في تحريك القرائح والأذهان، وقارن ذلك أو سبقه بقليل وصول الآثار الأدبية الجديدة من شعراء الشرق ، وعرفت الجزائر شعر شوقي وحافظ ومطران والرصافي، وما انتهت الحرب العالمية الأولى حتى كانت تلك المؤثرات المختلفة الموارد قد فعلت فعلها في النفوس الناشئة التي هي طلائع النهضة الأدبية، وشعرت الجزائر بعروبتها الأصيلة التي كانت كامنة كالنار في الجمر.[12]

وبدأ النثر العام يزدهر بولوج الطباعة والصحافة للجزائر، فظهر أول كتابٍ في الطب للحكيم محمد بن العربي لنيل شهادة أكاديمية، وقدّمه باللغة العربية إلى مدرسة الطب بباريس عام 1884، وعمد مبارك الميلي إلى تأليف كتاب في التاريخ الجزائري عبر عصوره، وألّف توفيق المدني حرب الثلاث مئة سنة، وكان كتاباً قيماً وضعه في وقت كان الاستعمار يتأهب للاحتفال بمئوية احتلاله لأرض الجزائر.

وقد اتفق العديد من الدراسين على اعتبار العشرينيات من القرن العشرين انطلاقة حقيقية للنهضة الأدبية بشقيها الشعري والنثري، حيث أكدَ عبد الملك مرتاض أن البداية الحقيقية للنهضة كانت سنة خمس وعشرين من القرن العشرين، حين أسس ابن باديس

جريدة المنتقد، وحين أسس مبارك الميلي قسمين للدراسة العصرية المنظمة بمدينة قسنطينة.[13]

وترسمت المعالم والخطوات الكبرى بظهور نادي الترقي على الساحة الثقافية سنة 1926 فكان نواة حقيقية لتكاثر المدارس والنوادي ومجالس العلم، وتزامن ذلك أيضا مع نشر صحيفة المنتقد التي كانت مؤشرا على النهضة الفكرية، والإصلاح الديني العام، وهو ما ألمح إليه الشيخ ابن باديس عندما قال "الحقيقة التي يعلمها كل أحد أن هذه الحركة الأدبية ظهرت واضحة من يوم أن برزت جريدة المنتقد، فمن يوم ذلك عرفت الجزائر من أبنائها كتاباً وشعراء ما كانت لتعرفهم من قبل"[14]

لقد انتعشت الساحة الأدبية النثرية والشعرية على حد سواء خلال هذا الزمن حتى نجد في الأدباء من جمع بين الصناعتين مثل الطيب العقبي، السنوسي الزاهري، أبو اليقظان، بوكوشة، أحمد سحنون، ومنهم من تفوق في مجال الكتابة النثرية مثل الابراهيمي، التبسي، بن باديس، الميلي، الفضيل الورتلاني، توفيق المدني، وأبو يعلى الزواوي، باعزيز بن عمر وغيرهم.

ويعزى لهؤلاء سعيهم الدؤوب لتخليص النثر الجزائري من التركة العثمانية الثقيلة لتلك الأساليب الموغلة في القدم المثقلة بالصنعة والسجع، فمعظم نتاج كتاب القرون المتقدمة كان "يرسف في أغلال الصنعة والتقليد، ولا يكاد يلتفت في موضوعاته إلى القضايا العامة للأمة أو يعبر عن مشاعر جماهيرها المختلفة، وإنما كان يدور في فلك العواطف الشخصية الضيقة، بتحبير التعازي والتهاني، وتدبيج المساجلات و الإخوانيات، وتصنيف التقاريض والشروح"[15]

و تسنى للنثر بمختلف ألوانه أن يكتسح الساحة الأدبية والدينية والاجتماعية، ونشط الكتاب في ميدان الكتابة والخطابة، وأدب الرحلة، إلى جانب تجريب أجناس كتابية حديثة على شاكلة المقالة والقصة والمسرحية. وشهدت اللغة العربية تطورا بارزا، فقد كاد

الاعتقاد يسود بتسلط الفرنسية[16] على الميدان الإداري والتواصلي حتى ظهرت اللغة العربية من رميم.

وورزقت الساحة الأدبية بأقلام من أطياف مختلفة وصحف ذات توجهات متنوعة استقطبت الإنتاج الأدبي ورعته، ودعمت الأقلام الشابة وحفزتها، فكانت المنتقد، الشهاب والصراط، والشريعة والنبراس في جهة الإصلاح، وكانت البلاغ والمرصاد والإخلاص ولسان الدين في جهة التصوف، ووجدت صحف أخرى انهزامية تخدم الاستعمار، أو في أقل الظروف لا تعنى إلا بشؤونها الخاصة.

ولقد انعكس صوت الصحوة الفكرية في مقالات متعددة على صفحات الجرائد، و بخطابات تنويرية على مستوى التجمعات الجماهيرية، فكان أبرز تجمعين في هذا المقام الاجتماع التأسيسي لجمعية العلماء المسلمين في شهر 05 ماي 1931م و الاجتماع التأسيسي لأنصار السنة في 23 ماي 1932 ، و عقد النجم أيضا مؤتمرا عاما في باريس، وانتهى ببرنامج هام أكد على ضرورة اتباعه قبل الاستقلال وبعده متأثرا بتجمع العلماء السابق، وكانت كلها مهرجانات سياسية أو ثقافية اجتماعية فكرية تنشد فيها الأشعار، وتتلى الخطابات، ويتناوب المفوهون خلالها على منصات القول والبيان.

لكن أهم هذه التجمعات على الإطلاق تأسيس جمعية العلماء المسلمين التي أحيت تعاليم الاسلام وقاومت الذوبان، وحمت الشخصية الجزائرية من التجنس، ورفعت من قيمة اللغة والأدب العربي عندما كان الاستعمار يباشر الاحتفال بمئوية احتلاله للجزائر.

وقد جاء في المادة ستة وستين (66)من قانون الجمعية الداخلي: "الأمة الجزائرية أمة عريقة في اسلامها، فالاسلام هو دينها الذي تفاخر به؛ وميراثها الخالد، والعربية لغة كتابها ومستودع آدابها وحكمتها، فالجمعية تريد أن ترجع بهذه الأمة من طريق الإرشاد إلى هداية الكتاب والسنة والسلف الصالح لتكون ماشية في رقيها الروحي على شعاع تلك الهداية.[17]

ويدل عمل ابن باديس الإصلاحي على فرادة في الطرح عندما بدأ نشاطه بالتعليم وتكوين الدعاة العاملين على نشر الدعوة، وهذا جانب مهم يختلف فيه عن المصلحين المشارقة، كما أن الإصلاح عند الشيخ محمد عبده ظل دعوة نظرية تراقبها الحكومة المصرية وتتحكم فيها وتوجهها، بينما نجد الإصلاح عند ابن باديس بعيدا ن مراقبة الحكومة الفرنسية وتوجيهها، وإن شمله اضطهادها، وقلل من انتشاره وتأثيره[18]

والحقيقة التي تقال أن الجزائر عرفت انتعاشا واصلاحا إعلاميا قل نظيره، في وقت يتم التركيز على الإصلاح وحصره في نطاق ديني ضيق، فإن المؤكد أن الإصلاح الإعلامي أخذ مكانة بارزة، وقد أنقذ اللغة العربية من ورطة المسخ، ووقف حائلا دون تعميم اللغة الفرنسية، أو ترسيخ الأمية.

وهو ما يثبت الدور الريادي الفاعل الذي مارسته صحف الإصلاح في تطوير اللغة العربية، والحفاظ عليها في آن واحد كلغة تواصل وكتابة، وهي صحف ما عبئت بمضايقات الاستعمار بقدر ما واصلت مسيرتها التنويرية معتنية بقضايا كثيرة في السياسة والدين والأدب والفكر.

والملاحظة البارزة أن النشر لم يتوقف، ولم تنقطع الكتابة الصحفية قرابة نصف قرن من الزمن من مطلع القرن العشرين إلى غاية الثورة التحريرية، وقد استطاعت الصحافة الإصلاحية أن ترتفع بالعربية من لغة صنعة وسلاسل بديع كما ورثها جيل الإصلاح عمن سبقهم إلى لغة إعلام ومناظرة وتبليغ.

لقد اصطدم الجزائريون بالواقع الاستعماري والغزو الحضاري الأوروبي المكتسح اصطداما عنيفا فمنهم من انغلق على تفكيره، وانطوى على تقليده، ويعتبر الكثير من الباحثين هذا الموقف سلبيا لأنه "ينتج التخلف الشديد عن ركب الحياة، ويقطع صلة هذا الجزء عن باقي العالم"[19]، وهذا كان أسلوب أغلب الجزائريين قبل قدوم جمعية العلماء، فقد أدى الاضطهاد ونزعة المعمرين العنصرية إلى ظهور نزعة المحافظة لدى الشعب الجزائري، حماية لمقوماته الوطنية الإسلامية، وعزوفا عن حضارة ارتبطت في مشاعره

بالوحشية والمظالم التي تسببت له في آلام نفسية ومادية عديدة[20]، وتسببت هذه النزعة في منع المرأة من التعليم، بل وصل بها الأمر إلى تحريم قراءة وطبع الصحف.

ومنهم من انبهر به وأغرق خاضعا في حضارة الغزاة "بعقائدها الأساسية ومناهجها الفكرية، وفلسفاتها المادية ونظمها الاقتصادية والسياسية التي نشأت، واختمرت في بيئة بعيدة عن بيئة هذا الأقطار تحت ضغط عوامل وحوادث خاصة"[21]

ومنهم فئة قاومته مقاومة شديدة وواعية تأخذ من الغرب ما يعينها كمشترك إنساني، وتتجنب الخواص الحضارية، وحتى هذه الفئة لم تدرك مبكرا أهمية الأدب في صياغة شخصيتها الحضارية ولا في قدرته على تثبيت قيم هذه الشخصية، وكان أن أغفلت بالتالي خطورة الأدب الأوروبي وهو يغزوها مع ما كان من غزو عسكري واقتصادي وسياسي وثقافي عام.[22]

ويصدق جزء من هذه العبارة على الأدب الجزائري الذي بقي لسنوات يراوح محله، ثم اضمحل في سنوات الاحتلال الأولى إلى مجرد أشعار للسمر والبكاء والنحيب، ومع قدوم جمعية العلماء المسلمين اندفع الأدب أشواطا متقدمة، وإن لم تخلصه الجمعية من رقابة صارمة ظلت تحاصره، وهي من قبيل الإدراك الواعي بخطورة الدخيل الأوروبي الفرنسي خشية تجنيس الأدب الجزائري وصهره ذوقا وشعورا، وإن كان عربي اللسان والقلم.

يرى الباحث "شلتاغ" أن هناك خطة غربية سعت لاحتواء العالم العربي وحضارته، استغلت أساليب العلوم الحديثة من علم نفس واجتماع وأنتربولوجيا وغيرها، من أجل تدجين إنسان المنطقة الإسلامية وطبعه بطابع الحضارة الغربية، حيث أدركت أوروبا أن العقبة الرئيسية التي تقف في طريق استيلائها على العالم هو الإسلام، لأنه حضارة ضاربة في جذور الشرق وإنسانه فلا سبيل إلى إخضاع هذا الشرق إلا بتشويه الإسلام ودراسة سبل نزع تأثيره في النفوس الإنسانية التي اعتنقته[23]؛ وهذه الخطة المكينة –التي يطلق عليها البعض تسمية النظام الأبوي[24]؛ اتبعت فيها أحدث الأساليب وأثرت على مختلف أطياف المجتمع، ففي الجزائر تأثر بها رجال الدين والسياسة، فزرعت بينهم الفرقة ودخلوا

في صراع فكري على حسب درجة التلقي، والاحتواء للمزروع الغربي، وحسب الرصيد القيمي للموروث العربي الإسلامي.

ولقد عكس الأدب العربي هذا الصراع بكل أبعاده، وصوره تصويرا شاملا في أنواعه وفنونه كلها، وهذا التصوير قد يكون من خلال الرفض والتحريض على مواجهة الغزو الحضاري الأوربي أو من خلال الرضا والترحيب به.. وقد انتقل هذا الصراع إلى قلب العالم الإسلامي، وبين أبنائه فيما بعد عندما تمكنت الحضارة الغربية من خلق الجيوب والأنصار الموالين لها داخل العالم الإسلامي نفسه.[25]

وكان مقدرا لهؤلاء الموالين والأنصار أن ينشروا أفكار المستعمر، وهو يحركهم كالقراقيز، واحتدم الجدل في مواجهة فئات وطنية ذات حس وشعور ديني صادق وواثق، وكان هدفها الأكبر الدفاع عن اللغة العربية، وحماية الإسلام بتفكيك الألغام التي زرعها الاستعمار بدهاء وضغينة.

لقد تعددت الأسباب التي أدت إلى نشوب صراع طويل ومحتدم بين الطرقيين والمصلحين الجزائريين، وهو أمر ليس جديدا على البيئة المغاربية في كل الأحوال، ولا جديدا على الأمة الإسلامية، فلطالما تجادل الفقهاء في مواجهة شطحات المتصوفة، بل إن التاريخ يروي أن كتاب الإحياء للصوفي أبي حامد الغزالي أحدث ضجة كبيرة بدخوله للديار المغربية في ذلك الوقت حتى أفتى الفقهاء بحرقه مدعومين من السلطان بدعوى أنه يحتوي على بدع المتكلمين وضلالاتهم، ويحمل أفكارا تناقض الفقهاء، وتدعو إلى شتمهم وتنفير الناس منهم، واعترض المتصوفة عليهم، وبمجرد انهيار دولة المرابطين، وقيام دولة الموحدين على أنقاضها، عاد كتاب إحياء علوم الدين للغزالي إلى الظهور، والتداول لدى كل الأسر، وفي كل ربوع بلاد المغرب والأندلس.[26]

لكن الفرق الوحيد أن متصوفة الأمس ما كانوا يداهنون السلطان، ولا يخشون فيه لومة لائم، لكن بعض المنتسبين للتصوف اليوم اهتموا بطقوس الشطح، وأغراهم ما عند السلطان من نفوذ، وكيف الأمر إذا كان من يمثل السلطة استعمارا غاشما وعدوا لدودا،

وهذا ما جعل الحركة الإصلاحية التي أسسها ابن باديس تقتحم غمار الصراع ضد بعض الزوايا والطرق للعديد من الأسباب نجملها فيما يلي:

1. تشبث أصحاب الطرق الصوفية بالماضي وبالنصوص القديمة في الفقه والدين دون محاولة التجديد، متوقفين عند عصور الانحطاط، موافقين على وقف باب الاجتهاد،، راضين بالبدع بلا انتقاد.

2. دخول المصلحين معترك السياسة مؤمنين بالتغيير، في حين كان يرى الطرقيون ذلك تجنيا على الدين، وخروجا على تقاليد المجتمع.

3. استناد الفكر الإصلاحي على الكتاب والسنة في فهم الدين، واعتماد رجال الطرق على إضافة مصادر أخرى مثل النصوص الصوفية وهي باطنية النظرة والتوجه، مما أوقع الناس في الشك والاضطراب.

4. التفاف الشباب حول الحركة الإصلاحية لأفكارها التنويرية، وتوفيرها للرعاية التعليمية والتربوية على أسس محدثة، في حين بقي الطرقيون يرسفون في أغلال التقليد، فكرا وممارسة، بل ويحيون في عزلة ما عادت مأمنا لهم من غائلة الأيام.

3. الصراع الفكري في الصحافة الجزائرية:

قد نظمت جمعية العلماء الصفوف لمواجهة التغريب منذ أن ردّ ابن باديس رده المشهور على مقال فرحات عباس الذي صرح فيه بغياب مفهوم الأمة في الوطن، وبالمثل واجهت الجمعية طريق الخرافة والجهل المقدس والمؤسس انطلاقا أيضا من الرد الشهير الذي قدمه ابن باديس على ابن عليوه حينما نشر أبياتا شعرية حلولية واستشهد بأحاديث نبوية موضوعة، وبالتالي كانت هذه الفترة فترة صراع، "صراع هذه الطرقية، والفقهاء المتزمتين وضد الفرنسة، وضد الجهل والتخلف، وبالتالي ضد الاستعمار الذي هو سبب ما يعانيه الشعب من مآسي وآلام".[27]

بل امتدت ردود ابن باديس ورفيقه الإبراهيمي إلى بقاع خارج الجزائر عندما تصديا مثلا لمقالات الشيخ الطاهر بن عاشور التونسي[28] رئيس إدارة جامع الزيتونة الذي نشر مقالات مؤيدة للطرقيين وباطلهم "ربما بضغط من القيم الفرنسي العام"[29]

والحقيقة الماثلة اليوم أن إنشاء المصلحين لصحيفة لم يكن يختلف عندهم عن فتح كتاب أو مدرسة لذلك أصدر أبو اليقظان ثمانية صحف تتبع الواحدة الأخرى، دون أن يعبئ بمصادرة الاستعمار لها أو توقيفها، كما كان يطبع أحيانا صحفه بتونس ليقوم بإصدارها بالجزائر، وقد صرنا في زمن تحول فيه نشر صحيفة إلى ما يشبه فتح متجر كبير، لأن الفاتح منشغل بحساب صفحات الإشهار أكثر من العناية بلغة صفحات الأخبار والثقافة.

ونؤرخ لبداية الصراع الإعلامي من صحيفة المنتقد التي ظهرت بقسنطينة سنة 1925 فكانت فتحا إعلاميا من طراز رفيع لا لأن زعيم الحركة الإصلاحية ابن باديس كان رئيس تحريرها، وليس فقط لأن أقلاما بارعة كانت تكتب بها مثل الميلي، والعقبي، وأبو يقظان، ومحمد العيد، والهادي السنوسي، بل لأنها اعتنت بالإصلاح الديني، وحاربت الخرافات والبدع التي كانت تروج في ركاب الطرقية المنحرفة محاربة لا هوادة فيها ولا لين ...وقاومت في الجانب الآخر أفكار الفرنسة والتغريب التي كان الاستعمار يبثها في عقول الشباب الجزائريين، ولم يمهلها الاستعمار كثيرا، فقد كبس عليها وقد أتمت اثنا عشر عددا.

ولم تكن كل الزوايا الجزائرية من طراز واحد، بل يعزى الفضل إليها في محافظتها على الحد الأدنى للثقافة الدينية، واستمرار تدريسها للغة العربية، "إلا أن طريقة التدريس كانت جامدة وعقيمة، حيث تقوم في الغالب على التلقين والحفظ، دون عناية بالفهم والربط بين الشريعة الإسلامية والحياة الاجتماعية، مما قلل من تأثير الزوايا والمتعلمين فيها، بل إن الامتداد الطرقي إلى الزوايا حولها إلى مراكز لتكوين أنصار متعصبين للطرقية أكثر مما ظلت مؤسسات تهتم بالثقافة الإسلامية الصحيحة"[30]

وقد رأينا "المنتقد" تتصدى للرد على الصحف الناطقة بالفرنسية التي تناهض الأهالي، ومن ذلك ما فعله ابن باديس بإحدى الصحف التي تنزه ترفعا من ذكر اسمها لأقوالها المسيئة للجزائريين "فجعلت دأبها إذاية الأهالي بالبهت والسفه، وقد تنازل "المنتقد" مرة فصفعها صفعة لا تزال آثارها في قفاها، ثم هو لا يتنازل اليوم حتى للتصريح باسمها، وإنما أن يقول للكاتب أن لا نجعل لها شأنا بمخاطبتها ما دامت سادرة في جنونها التعصبي، فإذا رجعت يوما (وما أبعده عنها) إلى رشدها، وكتبت بشيء من التعقل خاطبناها كما نخاطب المتعقلين من أهل مذهبها"[31]

والمكاشف لمقالات "المنتقد" يلفي لغة سهلة واضحة بسيطة تعمدها ابن باديس وصحبه، لأنها تناسب جيل ذلك العصر، قد كان جديد العهد باللغة، قليل الحظ من التحصيل، وهي أيضا تناسب طرائق المعلمين والمؤدبين، فالكتاب يتحرون البساطة لتوصيل الفكرة والإقناع، وتمكين ضعفاء اللغة من تعلمها، والملاحظ على الفقرة التي اعتمدناها من الصحيفة وسواها أنها تخلصت من ركام الصنعة اللفظية، وغدت لغة مرسلة طبعية لا أثر فيها لسلاسل البديع.

وكانت "المنتقد" تدرك أنها تتواصل مع جيل متعطش للدين، فكانت جل مواضيعها دينية، كما كانت تدرك أن هذا الجيل يحتاج إلى لغة عصرية بسيطة التناول فسعت بكل الطرق إلى تخفيف لهجتها، وتليين غرابتها من أجل مواكبة الراهن دون أن تفصم عراها عن موروثها العربي الأصيل.

إن هذه الصحيفة وغيرها استطاعت أن تعلم ما لم يتمكن المتعلم من إدراكه بالكتاب أو المدارس القرآنية، فهو حقيقة يتعلم النحو والصرف، لكنها تبقى مجرد قواعد جافة، إذا لم يمارسها كتابة وقراءة، وهذا ما أدركت حقيقته جمعية العلماء المسلمين، فراحت تنشر الصحف تلو الأخرى، والمعلوم أنه "منذ احتلال الجزائر فرض المعمرون لغتهم الفرنسية في ميادين اللغة والتسيير والثقافة بدل اللغة العربية، وأدى ذلك إلى تجميد وإيقاف نشاط اللغة العربية في الميادين السابقة، وفي المرحلة الثانية اعتبر المحتلون الفرنسية اللغة العربية لغة

أجنبية، وأصبح النشاط الثقافي باللغة العربية منذ ذلك الحين تحت رقابة الإدارة الفرنسية"[32]

كما واصلت اضطهادها للغة العربية بحرمان المراكز الثقافية من مواردها المالية المتمثلة في الأوقاف والاستيلاء على البنايات المستعملة للتدريس، وفرضت لغتها على ميدان التعليم و القضاء.

ولم يكن الاستعمار الفرنسي ينظر إلى اللغة العربية من زاوية ثقافية، وإنما كانت نظرته إليها من زاوية سياسية بحتة، وترتبط بالهدف السابق الذي يندرج في إطار السياسة الفرنسية التي اعتبرت الجزائر أرضا فرنسية، وانطلاقا من النظرة السابقة اعتبرت النشاط الثقافي باللغة العربية الذي يؤدي إلى استعادة مكانتها في الجزائر أو نموها، نشاطا سياسيا يقاوم أهداف الحكومة الفرنسية، لذلك يتعرض القائمون به إلى السجن والمحاكمة والتغريم.

وألفينا في سياق آخر أن سياسة المواجهة والصراع في بعض الأحيان بالجزائر يتبدل نمطها من المواجهة السافرة المندفعة إلى المقاومة اللينة المراوغة فصحف كثيرة كان يعطلها الاستعمار، لذلك لجأ بعضهم إلى نبذ الاشتغال بالسياسة مثلما فعله عمر راسم من خلال صحيفة "ذو الفقار"، والتصريح بذلك علنا عبر منبره الإعلامي، ووجدنا بعض الكتاب الجزائريين مثل صاحب "الفاروق" عمر ابن قدور يغير اللهجة الحادة ضد الطرقيين ويخففها، بعد تعرضه للنفي إلى الأغواط، فتعود "الفاروق" مرة أخرى أقل حدة بعد أن أمضى صاحبها سنوات نفيه.

ونرى أيضا ابن باديس بعد توقيف صحيفة "المنتقد" ، يتخذ سبيل التقية والمراوغة مع الاستعمار في صراعه الثاني من خلال الشهاب التي صدرت سنة 1925، فبدل أن يواجه الاستعمار علنا، راح يشتد في مقاومة الطرقيين كأنه يرى فيهم ظلا للاستعمار، ونسخة طبق الأصل عن خداعه ومكره، وقد نجح ابن باديس وصحبه في هذه الخطة الذكية حتى أنهم ضمنوا استمرار الصحيفة رغم المضايقات من سنة 1925-1939.

ومن أبرز الأدلة التي تثبت هذا التحول الظرفي الشعار الذي تصدر الشهاب "جريدة وطنية تعمل لسعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية" ففيه مراوغة واضحة فمن جهة يؤكد أن الجزائر أمة مستقلة، ويجعل من فرنسا طرفا خارجيا كم جهة أخرى، وفي عنوان الشهاب المأخوذ من الشهب دلالة واضحة على مواجهة الدجل وأصحاب الخرافات والبدع، ودعاة الطوالع. ولطالما ردد ابن باديس مقولة تختزل أسلوبه في المواجهة عندما قال: "تستطيع الظروف تكييفنا ولا تستطيع بإذن الله إتلافنا".

والحقيقة أن الشيخ ابن باديس في بداية الأمر كان يدعو إلى التفاهم مع رجال الطرق، ولم يكن عنيفا في هجومه عليهم، وقد كتب مقالات في هذا المعنى بصحيفة الشهاب تحت عنوان: دعوة إلى الحسنى فهل من مجيب؟، حتى أن دعوته إلى اللين والرفق أغضبت زميله الشيخ الطيب العقبي الذي قاطع مجلة الشهاب فترة طويلة ثائرا على مهادنة الطرقيين، لكن العقبي رجع بعد أن عادت الشهاب إلى مهاجمة الجامدين.[33]

وفي ضوء هذا الصراع ظهرت صحيفة "البرق" سنة 1927 وتحولت بدورها إلى ميدان للتصدي لجبهة الطرقيين خاصة في ركنها المعنون قوراص، حيث سعت سعيا دؤوبا إلى تتبع نقائصهم الفكرية بأسلوب تهكمي لاذع يشتط فيه الكاتب محمد سعيد الزاهري، "وقد كونت البرق في هذا السبيل مجموعة من الكتاب البارعين المعروفين بنزعتهم الإصلاحية المتحمسة وأسلوبهم الناري المقذع يجيء على رؤوسهم محمد السعيد الزاهري الذي كان يمضي مقالاته تأبط شرا، ومحمد الأمين العمودي الذي كان يوقع كتاباته سمهري، وكان بجانبهما الشيخ مبارك الميلي موقعا بيضاوي، والشيخ الطيب العقبي، وهو يمضي مقالاته بإمضائه الصريح أحيانا وأحيانا أخرى السلفي ...ومن بين الكتاب نجد مولود الحافظي الأزهري الذي بدأ مصلحا وانتهى طرقيا.

إن الأرضية اللغوية والفكرية التي مهدها الشيوخ بعون الصحافة، مكنت من ظهور جيل جديد شباني ترعرع في كنف من سبقه، قد أنس للغته العربية، وكرعها منذ النشأة، فصار ينوع في أساليبها، ويثقف طرقها، ويبدع فيها، فلم تعد الصحف وسيلة للتعبير عن

الوجدان والعاطفة فقط، بل أضحت طريقة لعرض الأفكار والدفاع عن المواقف، وهذا أكبر انتصار للإعلام في باب اللغة حيث جعل منها سلاحا للتعبير والتفكير.

4. قضايا الصراع الفكري في الصحف:

ومن أهم المواضيع التي تجاذب فيها المصلحون والطرقيون قضية المباهلة التي بادر العلويون بطرحها على رجال الإصلاح، فانتدب العقبي إلى إجابتهم عن الموضوع في سلسلة من المقالات الحارة اللهجة لم يغب عنها الطرح الموضوعي، ونشرت معظمها في الشهاب.

ونجد العقبي في الدعوة إلى مباهلة الطرقيين يستغرب من عدم فقههم لموضوع المباهلة، ويسخر من ادعائهم النسبة إلى الله مكذبا إياهم في تخصيص أنفسهم بهذا الاسم سواءا نسبة إلى الله الواحد، أو نسبة إلى شيخهم الذي ادعى الألوهية على طريقة غلاة المتصوفة "وان كنتم تعنون وتقصدون بأهل النسبة إلى الله، أهل النسبة إلى شيخكم الذي فتنتم به، وطريقكم التي أنتم عليها عاكفون، وربكم المتأله، فنعم نعم صدقتم في هذه وما كنتم من الكاذبين، ونحن لا ننازعكم في اختصاصكم بنسبتكم إلى إلهكم الذي أنتم به مؤمنون، وله منتسبون، فقد عرفنا نسبتكم إليه قبل اليوم كما عرفنا إيمانكم الصحيح لقوله:

فتشت عليك يا الله   لقيت روحي أنا الله

أما نحن فإننا ننكر عليكم وعلى شيخكم هذا القول ولا نؤمن به أبدا، ولو سميتمونا كافرين وملحدين ولا دينيين". [34]

ثم يستغرب العقبي عدم استجابة أهل الطريقة العلوية إلى المباهلة بعد أن سوفوا وطالبوا بتحديد النقاط التي تجري المباهلة حولها، ما اعتبره جبنا وخوفا عن المواجهة، فيخاطبهم متهكما "هبوا أيها البلاغيون ..أفتعجزون، وأنتم أهل النسبة، أهل الله، أهل الخصوصية، أهل التوحيد الخالص، أهل الفتوحات القدسية، والفيوضات اللدنية، إلى آخر ما أنتم أهله ؟ أفتعجزون عن محاربة مثلنا، والحال أنَ علمنا علم ظاهر فقط ، علم

أوراق، علم سطور، وأنتم علمكم علم ظاهر وباطن، علم أذواق وما وراء السبع الطباق، علم كل الأولين والآخرين، علم السالكين الواصلين العارفين"[35]

ويتحايل العقبي بكل طريقة على العلويين لتحديد يوم المباهلة، إلا أنه لا يلقى إجابة شافية، ولم يتشجع الطرقيون أيضا لمناظرة المصلحين.

وللطيب العقبي العديد من الأشعار المتميزة تنضح لهجتها برفض بدع الطرق مثل قصيدة "إلى الدين الخالص" التي اعتبرها المصلح مبارك الميلي أول معول مؤثر في هيكل المقدسات الطرقية، وكان العقبي ينشر قصائدا أخرى تحت ألقاب متنوعة، فيقول في الشهاب، وقد تلقب بسيف الحق مستهزءا بظاهرة السماع التي فتنت الطرق:

من علم الناس في ديننـــا بأن الغنا سنة تتبـــــــــع

وأن يأكل المرء أكل الحمار ويرقص في الجمع حتى يقــع

وقالوا سكرنا بحب الإلـــه وما أسكر القوم إلا القصع[36]

إلى جانب موضوع المباهلة نجد المصلحين قد فتحوا بابا للحوار مع الطرقيين في شأن الخلوة الطرقية، فيتصدى العربي التبسي من جهته للخلوة العليوية، فيراها أقبح ما وصلت إليه الطرقية بالجزائر لكونها لا تمت إلى الإسلام بصلة، لكون ادعاءات الفتح والكشف فيها تخيلات واصطناعات تتلاعب بعواطف العامة والمريدين، فيرد عليه أحد كتاب البلاغ، وهو المجاجي ويسفه أقوال التبسي، ويحط من قدره على عادة كتاب الطرقية، فكان مما قاله التبسي "كتبنا كتابة واضحة المعنى، جلية في المراد منها، لا خفاء بها، وهي تفهم البربري والعربي، أني أنكر الخلوة فقط، وأدعي أنها ليست من الإسلام لا في أصله ولا في لواحقه، وما ألقيت بالكلام على عواهنه، ولا نبزت أحدا كما فعل المجاجي، بل ألنت الكلمة، وذكرت الدواعي بشواهدها"

ولا يقف التبسي عند هذه الحدود بل يستمر في رده إلى حد اتهام صحيفة البلاغ التي تحولت برأيه إلى منبر يشهر للطرقية، ويبز الإصلاح، ويفتن الناس "والذي أجزم به أن كل من قرأ صحيفة البلاغ العليوي يعلم أن تحت ضلوعكم داءا دويا، وأنكم تكتبون ما

تكتبون ليقول الرعاع، والغوغاء، وأتباع كل ناعق الذين وضعهم الله تحت رعايتكم فغششتموهم، وما نصحتم لهم، وتحايلتم للعب بعقولهم ليقولوا: أنكم تدافعون عن الدين، وتبزون الخصوم، وتذبون عن الصوفية، والراسخون في العلم يعلمون أنه لا خوف على الإسلام والصوفية إلا منكم".[37]

والمناظرة باللغة العربية الأصيلة في الصحف تدل على نجاح الجزائريين في بسط نفوذهم على لغتهم، وتحكمهم في زمامها، فهي ليست لغة التواصل فقط، بل لغة التفكير والدفاع عن الدين، وفي ذلك أكبر تحد للظروف والاستعمار، صحيح أنهم تعلموا هذه اللغة بالمدارس والكتاتيب لكن صحف الإصلاح والصحف العربية عموما قد أكسبت لغتهم طواعية، ومكنتهم من التحكم في أساليبها، وفتحت لهم الصحافة مساحة البوح والتعبير، فطوروا طرق الإقناع لمواجهة الخصوم، وقد ينهزم أحد الطرفين لكن اللغة تنتصر دائما[38].

وقد استمر المصلحون في سيرهم على درب التصدي للطرقية حتى جاهروا علنا بوجود رباط وثيق بين هؤلاء والاستعمار، وكان التبسي شجاعا غير هياب في طرح هذه القضية على صحيفة البصائر قبيل سنة من انطلاق الثورة، محذرا من الحلف الطرقي الاستعماري المتآمر على الصحوة الإسلامية الجزائرية، مؤكدا نشر استدعاءات بين الناس في الجزائر "في زاوية من زوايا الضلال لحضور مؤتمر يعقد في المغرب، على أساس معاهدة اتفق فيها الحليفان: الطرقية والاستعمار... وعلى رأسهم عبد الحي الكتاني على القضاء على الحركة الإسلامية الحرة في الجزائر والمغرب وتونس، وعلى القائمين بها والمسيرين لها"[39]

هذه الحقيقة تجلت أيضا في صحيفة المرصاد التي أنشأها محمد عبابسة الأخضري سنة 1931 فعمدت إلى التصدي للخرافات والأساطير التي عمت مجال الطرقية من خلال قلم العمودي الذي اعتمد أسلوبا ثالبا متهكما ساخرا قلل من القيمة الفكرية لهذه المقالات المصطرعة، وبدد الأمل في الارتفاع بالحوار إلى مقام الرأي الحصيف، والظاهر أن العمودي تعمد هذا الأسلوب "لأنه يعتقد بأن الحجاج والمنطق والعلم لن يفيد مع أولئك"

صحيح ما يعتقده العمودي إلى حد ما من عدم جدوى المنطق والعلم مع من يعوزهم الفهم وبعضهم أميون أو جهلة عرفوا السبحة، وعدوا حباتها قبل أن يتدبروا معنى التسبيح و التحميد، لكنها تؤكد تراجع أسلوب المناظرة ليحل محله القدح، والتنابز دون أي داع أو مبرر.

إن الجمود الذي ران على القلوب، والمنطق الذي هو في نظر بعض الطرقيين كفر ومروق لا يؤثر في القلوب المتحجرة، "لكن يجب التفريق بين زوايا ضالة من صنع الاستعمار، وزوايا أخرى كانت معقلا للحفاظ على مقومات شخصية الجزائر، ومن هذه المقومات اللغة العربية".[40]

ولا يمكن أن نحاكم العمودي على طريقته هذه، وان كان لها ما يبررها، فقد غيبت جنس المناظرة وأجهضت ومضاته، مما قلل من القيمة الأدبية والإعلامية لبعض هذه النقاشات، والملفت للانتباه أن ما قاله العمودي لا يليق بصاحب الرسالة الأدبية، فهو يعرف سلفا أن طريق الحوار يتم وفق المنطق والجدل المقنن، ومع ذلك اختار المجال الثاني منساقا وراء العواطف الآنية، فانتقلت العدوى إلى كتاب كثيرين .

وقبل ظهور "البرق" كان الكاتب أحمد بن العابد العقبي مدعوما بالطيب العقبي والعمودي قد أصدر صحيفة أسبوعية 1925-1927 ببسكرة سماها تيمنا "صدى الصحراء" جعلها منبرا لملاحقة البدع وتعقب الطرقيين، ولم تتوقف الصحيفة عند هذه الحدود بل خاصمت الصحف الانتفاعية التي تستفيد من الريع، وتسالم المستعمر، وتخضع له، وتتملق موظفيه مثل جريدة النجاح حتى وصفتها في أحد العناوين ميكروب النجاح "وهي طالما لاحقت شخصية رئيس التحرير مامي إسماعيل منتقدة سلوكه وأعماله"[41]، كما واجهت رجال الدين المرتبطين بالإدارة الفرنسية، وكانت سياستهم الدينية عرجاء تقدم المصلحة الشخصية على العامة، مثل أولئك المربين "الذين امتنعوا عن تدريس باب الجهاد استجابة لتعليمات الإدارة الفرنسية، حتى أن بعض أئمة المساجد أفتى بأن القتلى من المجندين الجزائريين في الجيش الفرنسي لهم أجر الشهداء.[42]

وإذا كانت "الشهاب" قد اختارت أسلوب الاعتدال في الطرح و"البرق" اتخذت على الدوام أسلوب الهجوم السافر، فإن "صدى الصحراء" تحولت من مهاجمة الطرق والاستعمار إلى الصراع مع جمعية العلماء.

وقد فضحت ممارسات بعض الطرق مما يدخل في دائرة البدع والخرافات، وهي مسلمات عندهم، مثل صلاة الأربعاء الكحلة التي يجتمع فيها الناس وراء إمام لقراءة أدعية وأذكار، ويعتبرونها أفضل من صلاة العيدين، وكذلك انتشر ما يسمى بالزردة، وهي احتفالات تقام في المساجد، ويجتمع فيها النساء والرجال ويرقصون، ويأكلون ويشربون وينشدون أذكارا، وترتكب في بيوت الله أبشع الموبقات[43]، إلى جانب اعتماد بعض الألعاب السحرية عند بعض فرقهم كالعيساوية ، فيبهرون الناس بالحرق واللعب بالسيف والنار، وينسبون ذلك للدين والكرامات.

ولقد وجدنا في فترة النهضة الجزائرية الحديثة العديد من الشعراء يتصدون لظاهرة المتاجرة بالدين، وللطرقية التقليدية المستغلة للبسطاء، فكان من أهم المواضيع الدينية تناولا نظرا لخطورة هذه الظاهرة، وبقاءها مانعا من استكمال النهضة الفكرية والدينية، حتى وصل الأمر ببعض الشعراء ومنهم الطاهر بن عبد السلام أن يكتب مطولة في خمسمئة بيت يصف في بعضها الطرقيين ويشنع بهم، فيقول:

لهم طرق شتى بها قد تشرعوا   وهو عن طريق الشرع عمى البصيرة

لهم من شياطين الأنام عصابة   تقودهم للنار من غير مريـــــــــــة

وإذا كان الصراع بين المتصوفة والمصلحين في باب الصحافة قد أنجم جنس المناظرة، وأقوى جنس المقالة، فإنه في باب الأدب والشعر منه على الخصوص قد أنتج لنا ما يسمى بشعر النقائض، "وهي تشبه إلى حد ما نقائض جرير والفرزدق ولكنها تختلف من وجوه، منها أن قائلها حين ينقد هذا الاتجاه أو ذاك أو ينقد الشخصية أو تلك لا يكتب قصيدته من البحر نفسه أو القافية ذاتها، وكان الشاعر الذي ينتسب للفكر الإصلاحي يهجو شخصا معينا من أصحاب الطرق الصوفية فيرد عليه واحد من هؤلاء، والأمر

الثاني أن روح الفكاهة و السخرية تظهر بشكل سافر مقصود، ذلك أن الغرض هو التهكم والتجريح أو الانتقاص والتنكيت، أو الهجاء والتسفيه، أو الفخر بالحزب أو بالاتجاه لا بالقبيلة التي ينتمي إليها الشاعر كما هو الشأن في النقائض المعروفة"[44].

وهذا يثبت لنا أن حركة الصراع بين المصحلين وخصومهم على حد تعبير عبد الله الركيبي لم يبق في دائرة الاتجاه والأفكار، وإنما تعدت ذلك إلى نوع من الصراع الأدبي الفني، وكانت تدور في مجالات مختلفة تتصل بالشاعر وجمهوره، وهو ما يستدعي من الباحثين العناية به، بحيث تفتقر الدراسات الجزائرية اليوم معالجة موضوع شعر الجدل والنقائض الذي عرفته هذه الحقبة على تنوعه، مع ما يمكن أن نلتمسه من أساليب فنية وطرائق تعبيرية مختلفة.

الالتزام بالحياد والموضوعية والطرح العلمي عند زعماء الإصلاح كابن باديس والإبراهيمي.

الاتصاف بالتسرع والانسياق العاطفي، وثلب الأعراض أحيانا، وسفافة التعبير عند شباب الإصلاح مثل العمودي والزاهري.

الأسلوب الإصلاحي أقرب إلى الجانب الأدبي في تناول القضايا الدينية والفكرية، فيما يغلب على طابع الكتابة الطرقية الجانب الديني.

5. الخاتمة : ومن أهم النتائج المتوصل إليها في هذا الشأن:

اسهام الصحافة الإصلاحية في تعميم تعلم اللغة العربية، ومضاعفة أنصارها في مواجهة خطر الادماج، وتطويع الصحف لمعالجة قضايا اجتماعية ودينية كان لها أثر بارز على توجه الفرد الجزائري، وتأثير مثيل على الجماعات الدينية.

توفق الصحافة الإصلاحية في تجديد أساليب الخطاب الصحفي ومضامينه بما يتماشى وروح العصر، مع التصدي بالمثل للفرق المتحجرة في فكرها وآراءها والتي كانت تهدد الدين والمصير والمناعة اللغوية مع اتخاذ الإعلام وسيلة لوصل المجتمع بحاضره وربطه بماضيه الثقافي والحضاري والفكري واللغوي دون حصره في قوقعة التراث.

تجديد الزوايا الدينية الجزائرية لنظامها التربوي والتنظيمي بما يتماشى ومستجدات العصر كإنشاء الصحف، وتطوير أساليب التدريس، بتأثير من الحركة الإصلاحية التي انتقدت توجهها، وطرائقها في التربية والتعليم، في حين بقيت أخرى خاضعة للطرق التقليدية، ومغرقة في الطقوس التضليلية.

الالتزام بالحياد والموضوعية والطرح العلمي عند زعماء الإصلاح كابن باديس والإبراهيمي، والاتصاف بالتسرع والانسياق العاطفي، وثلب الأعراض أحيانا، وسفافة التعبير عند شباب الإصلاح مثل العمودي والزاهري، وعليه فالأسلوب الإصلاحي أقرب إلى الجانب الأدبي في تناول القضايا الدينية والفكرية، فيما يغلب على طابع الكتابة الطرقية الجانب الديني.

6. هوامش:

[1] عبد القادر المجاوي من مواليد 1848 بتلمسان، إمام ومدرس، انتقل للتدريس بالمدرسة الكتانية بقسنطينة التي فتحت في عهد صالح باي سنة 1778، إلى جانب تعليمه بالمدارس الحرة، ألهمت دروسه جيلا من الشباب المتعطش للعلم والمعرفة، من أشهر تلاميذه حمدان الونيسي أستاذ عبد الحميد بن باديس، والمولود بن موهوب أستاذ مالك بن نبي، توفي سنة 1914، من أشهر مؤلفاته إرشاد المعلمين طبع في القاهرة سنة 1877

[2] ينظر مقال العلامة عبد القادر المجاوي: مولود عويمر تاريخ النشر 22 يناير 2018، على الموقع www.shamela-dz.net.

[3] عالم وكاتب وشاعر مفتي المذهب المالكي بالجزائر من مواليد سنة 1852 بالجنوب الجزائري، تتلمذ على يد الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي، تنقل لطلب العلم بزوايا طولقة و زواوة بأقبو والهامل، ثم انتقل الى الجزائر العاصمة ليتوسع في العلم سنة 1883، عمل مدرسا ومفتيا، توفي سنة 1941.

[4] أبو القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة يسر فونتانة الشرقية الجزائر،1906، ص:03.

[5] وهو يقصد إعارتها

[6] المصدر نفسه، ص: 06

[7] عبد الحليم بن سماية: عالم من مواليد الجزائر العاصمة سنة 1886، درس على يد الحفناوي علم التاريخ والفلك، وانتقل الى تونس لدراسة الفلسفة على يد الشيخ محمد بن عيسى الجزائري، من تلاميذه: بن أبي شنب، ومحمد بن العربي، وعبد الرحمن الجيلالي، كان مهتما بمقارنة الأديان، فكان يقرأ الإنجيل والتوراة ويجادل علماءها، أصيب بلوثة في

آخر أيامه توفي سنة 1933، ينظر ترجمة الشيخ عبد الحليم بن سماية بقلم مولود عويمر بموقع المكتبة الجزائرية الشاملة، .www.shamela-dz.net

[8] محمد بن أبي شنب: من مواليد 1869 أول حائز على الدكتوراه في الأدب بالجزائر، ينحدر من مدينة المدية، أتقن أكثر من لغة، تتلمذ على يد الشيخ عبد الحليم بن سماية في علوم البلاغة والمنطق والتوحيد، انتخب سنة 1920 عضوا بالمجمع العلمي العربي بدمشق، ودرس بجامعة الجزائر، ألف أكثر من خمسين كتابا، توفي سنة 1929، قالت عنه الشهاب: لما عرفناه فقدناه، من أشهر ما حققه البستان لابن مريم، وعنوان الدراية للغبريني.

[9] –محمد بن سمينة: في الأدب الجزائري، تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما ،ط2 (مطبعة الكاهنة الجزائر 2003)،ص15

[10] أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، 1925. 1954 دار الهدى الجزائر،2010، ص:15

[11] يفند أحمد شرفي الرفاعي ما ذهب إليه أبو القاسم سعد الله متأثرا بمراجع فرنسية من وجود الحركة الوطنية قبل الحرب العالمية الأولى بسبب غياب الأحزاب والصحافة الوطنية وانعدام الحريات وتسلط قانون الأهالي المجحف، ينظر: الشعر الوطني الجزائري، ص14. 19، كما يفند أن يكون لزيارة الشيخ محمد عبده للجزائر تأثيرا كبيرا في النهضة الجزائرية، بل يؤكد وقوعها تحت طائلة مناورة استعمارية استغلها الاستعمار لحسابه ينظر ص:30. 32

[12]عبد الله الركيبي :القصة الجزائرية القصيرة ،(المؤسسة الوطنية للكتاب مطبعة القلم 1983) ص 36.

[13] عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر 1925-1954في الجزائر –(ش.و.ن.ت- الجزائر 1983) المقدمة ص:9

[14] محمد بن سمينة: في الأدب الجزائري، تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، ص15

[15] المرجع نفسه ،ص:24

[16] يشير المؤرخ أبو القاسم سعد الله أن الذين كانوا يلمون باللغة الفرنسية من الجزائريين إلى سنة 1911 قدر عددهم ب:450 فرد، ينظر الحركة الوطنية الجزائرية، دار الآداب، بيروت 1969، ط1،ص: 76.

[17] ينظر آثار البشير الابراهيمي/ جمع و تقديم أحمد طالب الابراهيمي/ ج1،ط1 (دار الغرب الاسلامي، بيروت 1997)ص84

[18] ينظر أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، 1925. 1954،ص: 58

[19] أبو الحسن علي الندوي: الصراع الفكري بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية،(دار الهدى الجزائر 2006.)ص:7.

[20] أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، 1925. 1954،ص: 49.

[21] المرجع نفسه،ص:29.

[22] ينظر شلتاغ عبود: الأدب والصراع الحضاري،ط1،(دار المعرفة دمشق سوريا 1416-1995) ص :5.

[23] المرجع نفسه،ص:7.

[24] إسماعيل زروخي :دراسات في الفكر العربي المعاصر،ط1 (دار الهدى عين مليلة 2002)ص:95

[25] المرجع نفسه، ص: 14

[26] يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة،ج2، دار البصائر، 2009،ص: 15

[27] عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري،ج2، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص: 30.

[28] ينظر: البصائر، عدد16 ،24 أفريل 1936.

[29] أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، 1925. 1954،ص:56

[30] المرجع نفسه،ص: 50.

[31] إسماعيل زروخي : دراسات في الفكر العربي المعاصر، ص:14

[32] أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، 1925. 1954، ص:33.

[33] عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري،ج2، ص: 35.

[34] محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية،1847-1939،ط1 (ش.و.ن.ت الجزائر1980)، ص:85.

[35] مقال :حول مباهلة العقبي للطرقيين :هل أجابوا، الشهاب سنة 03عدد101الخميس 16 ذي الحجة 16/1345 جوان 1927

[36] مجلة الشهاب، عدد 30 يناير 1927.

[37] لقد سمعنا باطلك فأين حقك، الشهاب عدد1،121ديسمبر1927.

[38] ومقارنة بسيطة بين صحافة الأمس واليوم تكشف عن اختلاف خطير، فالصحف الجزائرية في هذه الأيام لا تعنى إلا بالأخبار بلغة أقل ما يقال عنها أنها بسيطة ساذجة، وأحيانا قريبة من اللهجة الدارجة، تنتهك قواعدها في كل حين، لم تعد تصلح لا للحوار ولا للمناظرة، وحجة هؤلاء في ذلك وجود فرق بين لغة الصحافة ولغة الأدب، والحقيقة أن الصحافة لم تنفصل عن لغة الأدب انفصالا نهائيا وهو ما لم يفهمه بعض الكتاب اليوم.

[39].من غشنا فليس منا أيها الطرقيون، البصائر عدد226 ،17أفريل 1953.

[40] أحمد حداد، الشيخ أحمد حماني، ودوره في الحركة الإصلاحية و الوطنية1919-1998 تقديم عبد العزيز فيلالي، ط1،(دار الهدى الجزائر 2014)،ص:57.

[41] محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية، ص:62

[42] أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، 1925. 1954،ص:53.

[43] صحيفة صدى الصحراء، عدد 8 فيفري 1926.

[44] عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري، ج2،ص:51.